خفافيش الظلام

شيء غامض يجري هنا، فداخل تلك القاعة جلس الجميع مشدوهًا، حملقوا بأعينهم حد الجحوظ إلي ذلك الوقور الذي جلس يخطب فيهم، وكأنهم لا يعرفونه، أو أنهم يستمعون إليه للمرة الأولي، فما يقوله الرجل جديد عليهم، حتي أن أحدهم وجد نفسه يميل علي أذن الجالس بجواره قائلاً: آلم تلاحظ أن سيادة الوزير أصبح يتحدث جيدًا، تنهيده ساخرة أخرجت الرجل من ذهوله، فقد جاءت الإجابة صادمة له، أنظر إلي الداهية التي تجلس بجواره لتعرف السبب.

علي يمين الوزير جلس ذلك الداهية، بين الفينه والأخري يدون علي ورقته بعض الكلمات، يناولها للوزير ليبدأ في مواجهة تلك الأسئلة بالردود التي تليق به، فهذا المسئول، ورغم قيامه بالعمل السياسي منذ عشرات السنين، فوجئ بقرار الحزب ترشيحه لخوض معركة الإنتخابات البرلمانية، وفي دائرة لم تطأ قدمه أرضها منذ عشرون عام مضت، وأمام شخص لديه من الشعبية الضخمة ما تمكنه من هزيمته، إلي أن هبط عليه هذا الداهية، ليقلب الطاولة رأسًا علي عقب، ويساعده بكل الوسائل، المشروعة منها وغير المشروعة، ليتمكن أخيرًا من انتزاع مقعده تحت قبة البرلمان.

محامي مغمور، يستوطن إحدي القري النائية، لا يمتلك سوي عقل داهية، مكنه هذا العقل من التسلق رويدًا رويدًا إلي كبري مكاتب القانون، باع شرفه، حنث بقسمه، حتي حاز ثقة الجميع، ولأنه من تلك الدائرة التي يحكمها ذلك المرشح البرلماني ذائع الصيت، عرضوا عليه مساعدة رجلهم الحزبي في حربه الإنتخابية، قرر أن يتولي إدارة الحملة الدعائية بنفسه، وفي الليلة التي أُعلن فيها عن فوز سيده في الإنتخابات، تم تعينه مديرًا لمكتبه، ومستشارًا قانونيًا وإعلاميًا أيضًا، وفي اليوم التالي عضوًا بارزًا في حزب سيادته.

في مساء يوم بارد، وقف ذلك المحامي داخل غرفته الفندقية الشاهقة، يراقب شوارع المحروسة من خلف زجاج النافذة، فقد عقله بمجرد أن نظر إلي مصر من فوق أعلي المباني، فأقسم أن يعيش دائمًا في أعلي المباني وآلا يعود إلي أسفل مرة أخري، حتي يستشعر ذلك الجمال الذي لا يراه كل من ينظر إليها من أسفل، حتي يبتعد عن الزحام والفقر والهواء الفاسد، وناس ماشية في الشوارع بتخبط في بعض أثر القهر.

مرت الأيام والشهور، والحال أصبح غير ذاك الحال، نسي الرجل أصول وظيفته، نسي أنه ذو مهنة يدافع بها عن كل مظلوم، أضحي ذو نفوذ بكلمة واحدة يتغير كل شيء، حتي والده في القرية،

أصبح له دورًا إجتماعيًا هو الأخر، فبعد أن كان مجرد أجير يعمل في أطيان أعيان البلد، أصبح وجيهًا يقصده أهل القرية لقضاء حوائجهم، وما يقدمه لم يكن لوجه الله، بل مدفوع الثمن مقدمًا، حتي حانت لحظة أصبح فيها خطرًا عليهم، خشوا أن يكبر ويهز عروش فسادهم، فأوجدوا له مكانًا لائقًا داخل سجونهم.

منذ ما يقرب من رُبع قرن مضي، وتحديدًا عام ١٩٩٥ ميلادية، قدم الكاتب والسيناريست وحيد حامد، واحدة من أجمل الأعمال السينمائية الواقعية، طيور الظلام، والذي من خلاله أوجد ربط بين الفساد والإرهاب، ومدي علاقته بالسياسة والثقافة والأدب، عملاً عده النقاد «نبوءة» لحال المجتمع المصري في الألفية الثالثة، فحق عليهم إهدائه لمخرج الواقعية الأول، عاطف الطيب.

كذبت اسرة الفيلم بكل نجومها حينما دونت في مقدمة ذلك العمل الرائع تلك العبارة المفروضة عليهم، «هذا الفيلم خيال سينمائي بحت.. وأي تشابه بين الخيال والواقع يكون مجرد صدفه»، فما نعايشه يومًا بعد يوم، يؤكد أن ما قدموه منذ رُبع قرن ما هو إلا واقع ملموس توغل في مجتمعنا كما يتوغل السوس في ساق عجزت عن الصمود طويلاً، ليس في مجتمع المحامين فقط، ولكن في كل مجتمعات أنصار الكلمة.

●●●

ذات يوم صيفي حار، وصل إلي القاهرة، فتي يبدو بسيطًا، ولكنه طموح، لم يكن ذكيًا، ولكنه يدرك ما يريد، طيلة أيامه الأولي لم يقل أي كلمة، ظل يراقب الجميع، يفهم طبائعهم، اعتمد كثيرًا علي شقيقه الذي كان يرأس منصبًا تنفيذيًا بتلك الصحيفة المستقلة، ما جعله يتعامل مع زملائه وكأنه شريك في كل ما يكتبون، فرغم أنه لم يقدم أي فكرة موضوعية طيلة ثلاثة أشهر كاملة، إلا أن أسمه لم ينقطع يومًا عن صفحات تلك الصحيفة.

مرت الأيام وهذا الفتي لا يتحدث مطلقًا، وإذا تحدث لا تفهم ما يقول، لم يستطع أبدًا تكوين جملة مفيدة، حتي بدء البعض يسخر منه، هنا قرر شقيقه أن يتدخل بنفسه، عقد اجتماع مع أحد الصحفيين الشباب، أبلغه أن يهتم بشقيقه قليلاً، وأنه أضطر لإحضاره من قريتهم بأحد محافظات الصعيد لأنه لم يجد أي عمل، وأنه يدرك جيدًا أن شقيقه لا يجيد أي من فنون العمل الصحفي، ولكنه ماهر في صناعة علاقات، وأنه قادر علي تنفيذ كل ما يُطلب منه جيدًا.

سنة ورا سنة، كبر الفتي، تمكن بواسطة شقيقه، وبقدراته الخاصة، والتي ليس لها علاقة بمعايير المهنة، أن يرتقي درجات وظيفية، أقول وظيفية، ليس اعتمادًا علي سوابق أعماله، فحتي اليوم، ورغم مرور أكثر من عشرة سنوات، لا تجد له قضية واحدة

يمكن أن يتذكر البعض اسمه بها، لم يتمكن من انتذاع جائزة صحفية، أو يتلقي دورة تدريبية، لا يعرف الفرق بين التحقيق التقرير والتحقيق الإستقصائي، وستتعجبون إذا عرفتوا أنه، وبمنتهي السهولة، يتولي منصب رئيس التحرير لإحدي الصحف.

●●●

«شايف العربية إللي هناك دي.. عندي كمان واحدة.. ده غير حتة الأرض اللي اشتريتها في البلد.. والشقة الواسعة إللي في العجوزة.. يا ابني انت ماسك منجم دهب.. متخسروش».. كلمات صادمة أطلقها الصحفي العجوز، والذي لقبه زملاؤه المتابعون لتلك الوزارة الإقتصادية، بـ«الجنرال»، علي مسامع ذلك الشاب، في محاولة منه لإغراؤه، وإثناءه عن استكمال حملته ضد الفساد داخل إحدي هيئات تلك الوزارة.

لم يفهم الشاب في بادئ الأمر، من أين لذلك الجنرال بتلك الثروة، وهو مازال يُصر علي أنه جاء من قريته لا يملك حق إيجار شقة عادية، حتي اضطرته الظروف المعيشية لإستئجار غرفة في بدروم أحد العقارات الآيلة للسقوط في مدينة دار السلام، غير أنه أدرك الحقيقة بمجرد أن عرف أن ذلك الجنرال يعمل مستشارًا إعلاميًا لتلك الوزارة الإقتصادية، وفي نفس الوقت يقوم بالتغطية اليومية لنفس الوزارة في صحيفته القومية.

وكأنه سعد باشا زغلول، أو مصطفي بك كامل، أو حتي محمد أفندي أبو سويلم، أو أي من أصحاب تلك الشعارات البائدة، أولئك الذين وارت جثامينهم التراب، وقف الشاب أمام ذلك الجنرال يتحدث عن الأخلاق والمبادئ التي لا تتجزأ، والشعب الذي من حقه أن يعرف الحقيقة، لم يبالي عجوز المهنة بما يقول الفتي، بل نصحه أن يفعل مثلما فعل منذ سنوات، وأن عليه أن يتخلص من تلك المبادئ الضارة جدًا بالصحة.

ذات يوم، جاءت لذلك الشاب الطموح دعوة لحضور إحدي الفاعليات، سيحضرها ضيف في غاية الأهمية، وداخل قاعة الإجتماعات جلس نفس الجنرال بجواره، يذكره بأمر ذلك العرض، حاملاً معه جائزة لا تأتي إلا لمُستغلي الفرص، فقد قرر مسئول الوزارة الكريم أن يؤسس صحيفة إخبارية، وأنه لم يجد أمهر من ذلك الشاب ليتولي أمرها، علي بُعد خطوات جلس ذلك المسئول، واضعًا ساقًا فوق ساق، يرسم علي وجهه إبتسامة صفراء، وكأنه حقق هدفًا طالما حلم به.

لم تنتهي القصة بعد، مازال هناك الكثير، فصاحبة الجلالة تمتلئ بمثل هؤلاء المستشارين، البعض منهم وصولي متسلق، فاقدًا للمهنية، والبعض الأخر غلبه الطموح، فباع من أجله مبادئه وأخلاقه.

●●●

السر الذي فتح أبواب الجحيم في الستينات